رسائل سلفية
٣



بعناية
طارق السعود



للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت




رسالة
في
صفة الكلام

بسم الله الرحمن الرحيم

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م
الطبعة الثانية



دار الهجرة - دمشق - البرامكة - ص. ب ٥٢٩٩ .
بيروت - الرملة البيضاء - شارع أديسون هاتف : ٨٠٢٢٤٦ .

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم. قال الشيخ الإمام العالم المتقن المحقق الزاهد الورع الحبر الكامل جامع الفضائل ومرجع الأفاضل معين السائل ومعين المسائل حجة الإسلام بركة الأنام ناصر السنة وقامع البدعة تقي الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ الإمام العالم فخر الدين عبد الحليم بن الشيخ الإمام العالم العامل القطب مجد الدِّين عبد السلام ابن الشيخ أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني أسبغ اللّٰه عليه ملابس نعمه الفاخرة، ورزقه فعلَ سعادتي الدنيا والآخرة.

إن القرآن كلام اللّٰه ليس شيء منه كلاماً لغيره لا جبريل ولا محمد وغيرهما قال اللّٰه تعالى: ﴿فإذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ فاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ إنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ

عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ وَإِذَا بَدَّلنا آيَـةً مَكَـانَ آيَـةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَـا يُنَـزِّلُ قَـالُـوا إِنَّمَـا أَنْتَ مُفْتَـرٍ بَـلْ أَكْثَـرُهُمْ لاَ يَعْلَمُـونَ قُـلْ نَـزَّلَـهُ رُوحُ القُـدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾[1] فأمره أن يقول نـزله روح القـدس من ربك بالحق فـإن الضمير في قـوله قل نزله عـائد على ما في قوله بما ينزل والمراد به القرآن كما يدل عليه سياق القرآن، وقوله: ﴿والله أعلم بما ينزل﴾ فيه إخبار الله بأنه أنزله لكن ليس في هذه اللفظة بيان أن روح القدس نزل به ولا أنـه منزل منه، ولفظ الإنزال في القرآن قد يرد مقيداً بالإنزال منه كنزول القرآن، وقد يرد مقيداً بالإنزال من السماء، ويراد به العلو فيتناول نزول المطر من السحاب، ونزول الملائكة من عند الله وغير ذلك، وقد يرد مطلقاً فلا يختص بنـوع من الإنزال، بل ربما يتناول الإنزال من رؤوس الجبال كقوله: ﴿وَأَنْزَلْنا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَـدِيدٌ﴾[2] والإنـزال من ظهور الحيوان كإنزال الفحل الماء وغير ذلك. فقوله: ﴿نزّله روح

(١) سورة النحل الآية ١٠٢.

(٢) سورة الحديد الآية ٢٥.

القدس من ربك بالحق﴾ بيان لنزول جبريل به من الله فإن روح القدس هنا هو جبريل بدليل قوله: ﴿مَنْ كانَ عَـدُوًّا لِجبْريلَ فإِنَّهُ نَـزَّلَهُ عَلَى قَلْبِـكَ﴾[1] وهو الـروح الأمين في قول: ﴿وَإنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[2] وفي قوله الأمين دلالة على أنه مؤتمن على مـا أُرسل به لا يزيد فيه ولا ينقص منه فإن الرسول الخائن قد يغير الرسالة كما قال في صفته في الآية الأخرى: ﴿إنَّهُ لَقوْلُ رَسُولٍ كرِيمٍ ذِي قُـوَّةٍ عِنْدَ ذِي العَـرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[3] وفي قـوله: ﴿منزل من ربك﴾ دلالة على أمور منها بطلان قول من يقول إنه كلام مخلوق خلقه في جسم من الأجسام المخلوقه كما هو قول الجهميين الذين قالـوا بخلق القرآن من المعتـزلة والنجارية والضرارية وغيرهم من السلف كانوا يسمون كل من نفى الصفات وقال إن القرآن مخلوق وأن الله لا يُرى في الآخرة جهمياً، فإن جهماً أول من ظهرت عنه بدعة نفي

---

(١) سورة البقرة الآية ٩٨.

(٢) سورة الشعراء الآية ١٩٤.

(٣) سورة التكوير الآية ١٩ ـ ٢٠.

الأسماء والصفات وبالغ في نفي ذلك فله في هذه البدعة مزية المبالغة في النفي والإبتداء بكثرة إظهار ذلك والدعوة إليه وإن كان جعد سبقه إلى بعض ذلك فإن الجعد بن درهم أوَّل من أحدَث ذلك في الإسلام فضحى به خالد بن عبد اللَّه القسري بواسطة يوم النحر وقال أيها الناس ضحوا يقبل اللَّه ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم إنه زعم أنّ اللَّه لم يتخذ إبراهيم خليلاً يكلم موسى تكليماً تعالى اللَّه عما يقول الجعد بن درهم علواً كبيراً ثم نزل فذبحه ولكن المعتزلة وإن وافقوا جهماً على بعض ذلك فهم مخالفوه في مسائل غير ذلك: كمسائل القدر والإيمان وبعض مسائل الصفات أيضاً ولا يبالغون في النفي مبالغته.

وجهم يقول إن اللَّه تعالى لا يتكلم أو يقول إنه يتكلم بطريق المجاز وأما المعتزلة فيقولون إنه يتكلم حقيقة لكن قولهم في المعنى هو قول جهم وجهم ينفي الأسماء أيضاً كما نفتها الباطنية ومن وافقهم من الفلاسفة وأما جمهور المعتزلة فلا ينفون الأسماء والمقصود أن قوله: ﴿منزل من ربك﴾ فيه بيان أنه منزل من اللَّه لا من مخلوق من المخلوقات ولهذا قال السلف منه بدا أي هو الذي تكلم به

لم يبتد من غيره كما قالت الخلقية. ومنها أن قوله: ﴿**منزل من ربك**﴾ فيه بطلان قول من يجعله فاض على نفس النبي من العقل الفعال أو غيره كما يقول ذلك طوائف من الفلاسفة والصابئة وهذا القول أعظم كفراً وضلالاً من الذي قبله، ومنها أن هذه الآية أيضاً تبطل قول من يقول إن القرآن العربي ليس منزلاً من اللَّه بل مخلوق إما في جبريل أو محمد أو جسم آخر غيرهما كما يقول ذلك الكلابية والأشعرية الذين يقولون إن القرآن العربي ليس هو كلام اللَّه وإنما كلامه المعنى القائم بذاته والقرآن العربي خلق ليدل على ذلك المعنى ثم إما أن يكون خلق في بعض الأجسام الهواء أو غيره أو ألهمه جبريل فعبر عنه بالقرآن العربي أو ألهمه محمد فعبّر عنه بالقرآن العربي أو يكون أخذه جبريل من اللوح المحفوظ أو غيره، فهذه الأقوال التي تقال تفريع على هذا القول فإن هذا القرآن العربي لا بد له من متكلم تكلم به أولاً قبل أن يصل إلينا وهذا القول يوافق قول المعتزلة ونحوهم في إثبات خلق القرآن العربي وكذلك التوراة العبرية ويفارقه من وجهين أحدهما أن أولئك يقولون إن المخلوق كلام اللَّه وهؤلاء يقولون إنه كلام اللَّه لكن

يسمونه كلام اللَّه مجازاً وهذا قول أئمتهم وجمهورهم، وقال طائفة من متأخريهم بل لفظ الكلام يقال على هذا وهذا بالإشتراك اللفظي لكن هذا ينقض أصلهم في إبطال قيام الكلام بغير المتكلم به وهم مع هذا لا يقولون إن المخلوق كلام اللَّه حقيقة كما تقوله المعتزلة مع قولهم أنه كلامه حقيقة بل يجعلون القرآن العربي كلاماً لغير اللَّه وهو كلامه حقيقة وهذا شر من قول المعتزلة وهذا حقيقة قول الجهمية ومن هذا الوجه، فقول المعتزلة أقرب وقول الآخرين هو قول الجهمية المحضة لكن المعتزلة في المعنى يوافقون هؤلاء وإنما ينازعونهم في اللفظ الثاني. إن هؤلاء يقولون للَّه كلام هو معنى قديم قائم بذاته والخلقية يقولون لا يقوم بذاته كلام ومن هذا الوجه فالكلابية خير من الخلقية في الظاهر، لكن جمهور الناس يقولون إن أصحاب هذا القول عند التحقيق لم يثبتوا له كلاماً حقيقة غير المخلوق فإنهم يقولون إنه معنى واحد هو الأمر والنهي والخبر فإن عبر عنه بالعربية كان قرآناً وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً، ومنهم من قال هو خمس معان.

وجمهور العقلاء يقولون إن فساد هذا معلوم بالضرورة

بعد التصور التام والعقلاء الكثيرون لا يتفقون على الكذب وجحد الضرورات من غير تواطؤ واتفاق كما في مخبر الأخبار المتواترة،وأما مع التواطؤ فقد يتفقون على الكذب عمداً وقد يتفقون على جحد الضرورات وإن لم يعلم كل منهم أنه جاحد للضرورة ولو يفهم حقيقة القول الذي يعتقده لحسن ظنه فيمن يقلد قوله : ولحبه لِنصر ذلك القول كما اتفقت النصارى والرافضة وغيرهم من الطوائف على مقالات يعلم فسادها بالضرورة.

وقال جمهور العقلاء نحن اذا اعربنا التوراة والانجيل لم يكن معنى ذلك معنى القرآن بل معاني هذا ليست معاني هذا وكذلك معنى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[1] ليس هو معنى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾[2] ولا معنى آية الكرسي هو معنى آية الدين: وقال إذا جوزتم أن تكون الحقائق المتنوعة شيئاً واحداً فجوزوا أن يكون العلم والقدرة والكلام والسمع والبصر صفة واحدة فاعترف أئمة لهذا القول بأن هذا الالزام

(١) سورة الإخلاص الآية ١.

(٢) سورة المسد الآية ١.

ليس لهم عنه جواب عقلي: ثم منهم من قال الناس في الصفات إما مثبت لها قائل بالتعدد وإما ناف لها وأما إثباتها واتحادها فخلاف الاجماع وهذه طريقة القاضي أبي بكر[1] وأبي المعالي[2] وغيرهما: ومنهم من اعترف بأنه ليس له عنه جواب كأبي الحسن الآمدي وغيره: والمقصود هنا أن هذه الآية تبين بطلان هذا القول كما تثبت بطلان غيره فإن قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾[3] يقتضي نزول القرآن من ربه والقرآن اسم للقرآن العربي لفظه ومعناه بدليل قوله: ﴿فإذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ﴾[4] وإنما يقرأ القرآن العربي لا

---

(١) أبو بكر: هو القاضي محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، من كبار علماء الكلام. انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة. ولد في البصرة عام ٣٣٨ هـ، الموافق ٩٥٠ م، وتوفي في عام ٤٠٣ هـ، الموافق ١٠١٣ م، كان جيد الاستنباط، سريع الجواب.

(٢) أبو المعالي: هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين، أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي، ولد في جوين (نيسابور) عام ٤١٩ هـ، الموافق ١٠٢٨ م. ورحل إلى بغداد، ثم إلى مكة وجاور الحرم أربع سنين وأفتى في المدينة. ثم عاد إلى نيسابور فبنى له الوزير نظام الملك «المدرسة النظامية». مات سنة ٤٧٨ هـ، الموافق ١٠٨٥ م.

(٣) سورة النحل الآية ١٠٢.

(٤) سورة النحل الآية ٩٨.

يقرأ معانيه المجردة، وأيضاً فضمير المفعول في قوله نزله عائد على ما في قوله: ﴿وَاللَّهُ أعلَمُ بِما يُنَزِّلُ﴾[1] فالذي أنزله اللَّه هو الذي نزله روح القدس فإذا كان روح القدس نزل بالقرآن العربي لزم أن يكون نزله من اللَّه فلا يكون شيء منه نزله من عين من الأعيان المخلوقة ولا نزله من نفسه وأيضاً فإنه قال عقيب هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ نَعلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولونَ إنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾[2] وهم كانوا يقولون إنما يعلمه هذا القرآن العربي بشر لم يكونوا يقولون إنما يعلمه بشر معانيه فقط بدليل قوله: ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ فإنه تعالى أبطل قول الكفار بأن لسان الذي ألحدوا إليه بأن أضافوا إليه هذا القرآن فجعلوه هو الذي يعلم محمداً القرآن لسان أعجمي والقرآن لسان عربي مبين وعبر عن هذا المعنى بلفظ يلحدون لما تضمن من معنى ميلهم عن الحق وميلهم إلى هذا الذي أضافوا إليه القرآن فإن لفظ الالحاد يقتضي ميلاً عن شيء إلى شيء

---

(١) سورة النحل الآية ١٠١.

(٢) سورة النحل الآية ١٠٣.

بباطل فلو كان الكفار قالوا يعلمه معانيه فقط لم يكن هذا رداً لقولهم فإن الانسان قد يتعلم من الاعجمي شيئاً بلغة ذلك الأعجمي ويعبر عنه هو بعبارته وقد اشتهـر في التفسير أن بعض الكفار كانوا يقولون هو تعلمه من شخص كان بمكة أعجمي قيل أنه كان مولى لابن الحضرمي واذا كان الكفار جعلوا الذي يعلمه ما نزل به روح القدس بشراً واللَّه أبطل ذلك بأن لسان ذلك أعجمي وهذا لسان عربي مبين علم أن روح القدس نزل باللسان العربي وأن محمَّداً لم يؤلف نظم القرآن بل سمعه من روح القدس وإذا كان روح القدس نزل به من اللَّه علم أنه سمعه منه لم يؤلفه هو وهذا بيان من اللَّه أن القرآن الذي هو اللسان العربي سمعه روح القدس من اللَّه ونزل به منه، ونظير هذه الآية قولـه تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عُدُواً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ﴾[1] الى قوله: ﴿مُقْتَرِفُونَ﴾ وكذلك قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُم الكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ﴾[2] والكتاب اسم

---

(١) سورة الأنعام الآية ١١٢.

(٢) سورة الأنعام الآية ١١٤.

للقرآن العربي بالضرورة والاتفاق فان الكلابية أو بعضهم يفرق بين كلام اللَّه وكتاب اللَّه فيقول كلامه هو المعنى القائم بالذات وهو غير مخلوق وكتابه هو المنظوم المؤلف العربي وهو مخلوق والقرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة واللَّه تعالى قد سمى نفس مجموع اللفظ والمعنى قرآناً وكتاباً وكلاماً فقال تعالى: ﴿الر. تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾[1] وقال: ﴿طس. تِلْكَ آيَاتُ القُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾[2] وقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيكَ نَفَراً مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ﴾[3] إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسىٰ﴾[4] فبين أن الذي سمعوه هو القرآن وهو الكتاب: وقال ﴿بَلْ هُوَ قُرآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[5] وقال: ﴿إِنَّهُ لَقُرآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَاب مَكْنُونٍ﴾[6] وقال: ﴿يَتْلوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً. فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾[7] وقال:

---

(١) سورة الحجر الآية ١ .

(٢) سورة النمل الآية ١ .

(٣) سورة الأحقاف الآية ٢٩ .

(٤) سورة الأحقاف الآية ٣٠ .

(٥) سورة البروج الآية ٢٢ .

(٦) سورة الواقعة الآية ٧٧ ـ ٧٨. (٧) سورة البينة الآية ٢ ـ ٣.

﴿وَالطُّورِ. وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ. فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾[1] وقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بأَيْدِيهِم﴾[2] لكن لفظ الكتاب قد يراد به المكتوب فيكون هو الكلام وقد يراد به ما يكتب فيه كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾[3] وقال: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾[4] والمقصود هنا أن قوله وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلاً يتناول نزول القرآن العربي على كل قول: وقد أخبر ﴿أن الذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق﴾[5] اخبار مستشهد بهم لا مكذب لهم وقال إنهم يعلمون ذلك ولم يقل أنهم يظنونه أو يقولونه والعلم لا يكون إلا حقاً مطابقاً للمعلوم بخلاف القول والظن الذي ينقسم الى حق وباطل فعلم أن القرآن العربي منزل من اللّه لا من الهواء ولا من اللوح ولا من جسم آخر ولا من جبريل ولا من محمد ولا غيرهما وإذا كان أهل الكتب يعلمون ذلك

---

(١) سورة الطور الآية ١ ـ ٢ ـ ٣ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٧ .

(٣) سورة الواقعة الآية ٧٧ ـ ٧٨.

(٤) سورة الإسراء الآية ١٣ .

(٥) سورة الواقعة الآية ٧٨ .

فمن لم يقر بذلك من هذه الأمة كان أهل الكتاب المقرون بذلك خيراً منه من هذا الوجه وهذا لا ينافي ماجاء عن ابن عباس وغيره من السلف في تفسير قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[1] أنزل إلى بيت العزة في السماء الدنيا ثم أنزله بعد ذلك منجماً مفرقا بحسب الحوادث ولا ينافي أنه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل نزوله كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قرآنٌ مَجيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[2] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقرآنٌ كَرِيمٌ في كِتَابٍ مَكْنُون لا يَمَسُّهُ إلاَّ المُطَهَّرُونَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّها تَذْكِرَةٌ. فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ. في صُحفٍ مُكَرَّمَةٍ. مَرْفُوعَةٍ مُطَهرة. بأَيْدِي سَفَرَةٍ. كِرَامٍ بَرَرَة﴾[4]وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[5] فإن كونه مكتوباً في اللوح المحفوظ: وفي صحف مطهرة بأيدي الملائكة لا ينافي كون جبريل نزل به من اللّه سواء كتبه اللّه قبل أن يرسل به

(١) سورة القدر الآية ١ .

(٢) سورة البروج الآية ٢١ ـ ٢٢ .

(٣) سورة الواقعة الآيات ٧٧ ـ ٧٨ ـ ٧٩ .

(٤) سورة عبس الآيات ١١ ـ ١٥ .

(٥) سورة الزخرف الآية ٤ .

جبريل أو بعد ذلك وإذا كان قد أنزله مكتوباً إلى بيت العزة جملة واحدة ليلة القدر فقد كتبه كله قبل أن ينزله والله تعالى يعلم ما كان وما يكون وما لا يكون لو كان كيف كان يكون وهو سبحانه قد قدر مقادير الخلائق وكتب أعمال العباد قبل أن يعملوها كما ثبت ذلك في الكتاب والسنة وآثار السلف ثم انـه يأمـر الملائكـة بكتابتهـا بعدمـا يعملونها فيقـابل بين الكتابة المتقدمة على الوجود والكتابة المتأخرة عنه فلا يكون بينهما تفاوت هكذا قال ابن عباس وغيره من السلف وهو حق فاذا كان ما يخلقه بائناً عنه قد كتبه قبل أن يخلقه فكيف تستبعد أن يكتب كـلامه الـذي يرسـل به مـلائكته قبل أن يرسلهم. ومن قال أن جبريل أخذ القرآن من الكتـاب لم يسمعه من الله كان هذا باطلاً من وجوه: منها أن يقال فالله سبحانه وتعالى قد كتب التوراة لموسى بيده فبنو اسـرائيل أخذوا كلام الله من الكتاب الذي كتبه هو سبحانه وتعالى فيه فإن كان محمّد أخذه عن جبريل وجبريـل عن الكتاب كان بنو اسرائيل أعلا من محمد بدرجة، وكذلك من قال أنه القي إلى جبريل المعـاني وأن جبريـل عبر عنهـا بالكـلام العربي فقوله يستلزم أن يكون جبريل ألهمـه إلهامـاً وهذا

الالهام يكون لآحاد المؤمنين. وكما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلى الحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنوا بِي وَبِرَسُولِي﴾[١] وقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلى أُمِّ موسىٰ أَنِ ارْضِعِيهِ﴾[٢] وقد أوحى إلى سائر النبيين فيكون هذا الوحي الذي يكون لآحاد الأنبياء والمؤمنين أعلى من أخذ محمد القرآن عن جبريل لأن جبريل الذي علمه لمحمد هو بمنزلة الواحد من هؤلاء ولهذا زعم ابن عربي أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء وقال لأنه يأخذ من المعدن الذي يوحى به إلى الرسول فجعل أخذه وأخذ الملك الذي جاء الى الرسول من معدن واحد وادعى أن أخذه عن اللَّه تعالى أعلى من أخذ الرسول للقرآن، ومعلوم أن هذا من أعظم الكفر وأن هذا القول من جنسه، وأيضاً فاللَّه تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَوْحَينا إِلَيْكَ كَما أَوْحَينا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلى إِبْرَاهِيمَ وَاسْمَاعِيلَ وَاسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْباطِ﴾[٣] الى قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ موسىٰ تَكْلِيماً﴾[٤] ففضل موسى بالتكليم على

---

(١) سورة المائدة الآية ١١١.

(٢) سورة القصص الآية ٧.

(٣) سورة النساء الآية ١٦٣.

(٤) سورة النساء الآية ١٦٤.

غيره ممن أوحى اليه وهذا يدل على أمور أن اللّه يكلم عبده تكليماً زائداً عن الوحي الذي هو قسيم التكليم الخاص فإن الخاص لفظ التكليم والوحي كل منهما ينقسم الى عـــام وخاص فالتكليم العام هو المقسم في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَـهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيـاً أَوْ مِنْ وَرَاء حِجَـابٍ أَوْ يُـرْسِـلَ رَسُولاً﴾[1] والتكليم المطلق هو قسيم الوحي الخاص ليس هو قسماً منه وكذلك لفظ الوحي قد يكون عاماً فيدخل فيه التكليم الخـاص كما في قـولـه لمـوسى: ﴿فـاسْتَمِـعْ لِمـا يُوحىٰ﴾[2] وقد يكون قسيم التكليم الخاص كما في سورة الشورى وهذا يبطل قول من يقول الكلام معنى واحد قائم بالذات فإنه حينئذ لا فرق بين التكليم الذي خص به موسى والوحي العام الذي يكون لآحاد العباد: ومثل هذا قوله في الآية الأخرى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يكلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِي بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ﴾[3] فانه فرق بين الايحاء وبين التكليـم مـن وراء الحجاب وبـين

---

(١) سورة الشورى الآية ٥١،

(٢) سورة طه الآية ١٣ .

(٣) سورة الشورى الآية ٥١ .

ارسال رسول يوحى بإذنه ما يشاء فدل على أن التكلم من وراء حجاب كما كلم موسى أمر غير الايحاء، وأيضاً فقوله: ﴿تنزيل الكتاب من اللّه العزيز الحكيم﴾[1] وقوله: ﴿حم تنزيل الكتاب من اللّه العزيز العليم﴾[2] وقوله: ﴿حم تنزيل من الرحمن الرحيم﴾[3] وأمثال ذلك يدل على أنه منزل من اللّه لا من غيره، وكذلك قوله: ﴿بَلغْ ما أُنْزِلَ إلَيكَ مِنْ رَبِّكَ﴾[4] فانه يدل على اثبات أن ما أنزل اليه من ربه وأنه مبلغ مأمور بتبليغ ذلك. وأيضاً فهم يقولون انه معنى واحد فإن كان موسى سمع جميع المعنى فقد سمع جميع كلام اللّه وأن سمع بعضه فقد تبعض وكلاهما ينقض قولهم فإنهم يقولون إنه معنى واحد لا يتعدد ولا يتبعض، فإن كان ما يسمعه موسى والملائكة هو ذلك المعنى كله كان كل منهم علم جميع كلام اللّه وكلامه متضمن لجميع خبره وجميع أمره فيلزم أن

---

(١) سورة الزمر الآية ١، وسورة الجاثية الآية ٢، وسورة الأحقاف الآية ٢.

(٢) سورة غافر الآية ٢.

(٣) سورة فصلت الآية ٢.

(٤) سورة المائدة الآية ٦٧.

يكون كل واحد ممن كلمه اللَّه وأنزل عليه شيئاً من كلامه عالماً بجميع أخبار اللَّه وأوامره وهذا معلوم الفساد بالضرورة، وإن كان الواحد من هؤلاء إنما يسمع بعضه فقد تبعض كلامه وذلك يناقض قولهم، وأيضاً فقوله: ﴿**وكلم اللَّه موسى تكليماً**﴾[1] وقوله: ﴿**ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه**﴾[2] وقوله: ﴿**وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا**﴾[3] وقوله: ﴿**فَلَمَّا أتاهَا نُودِيَ يامُوسى إنِّي أنا رَبُّكَ فاخْلَعْ نعْلَيْكَ إنَّكَ بِالوَادِ المُقَدَّسِ طُوى وَأنا اخْتَرْتُكَ فاسْتَمِعْ لِما يُوحى**﴾[4] الآيات دليل على تكليمٍ يسمعه موسى والمعنى المجرد لا يسمع بالضرورة. ومن قال إنه يسمع فهو مكابر، ودليل على أنه ناداه والنداء لا يكون إلا صوتاً مسموعاً ولا يعقل في لغة العرب لفظ النداء لغير صوت مسموع لا حقيقة ولا مجازاً وأيضاً فقد قال تعالى: ﴿**فلَمَّا جاءَها نُودِيَ أنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها**

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٤.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٤٣.

(٣) سورة مريم الآية ٥٢.

(٤) سورة طه الآية ١١.

وَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ العَالَمِين﴾[١] وقوله: ﴿فلَمَّا أتاهَا نُودِي مِن شَاطِىءِ الوَادِ الأيمَنِ في البُقْعَةِ المُباركَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أنْ يا مُوسىٰ إنِّي أنا اللَّهُ رَبُّ العَـالمِينَ﴾[٢] وقال: ﴿وهـل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى﴾[٣] وقال: ﴿فلمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى. إني أنا رَبُّكَ﴾[٤] وفي هذا دليل على أنه حينئذ نودي ولما يناد قبل ذلك. ولما فيها من معنى الظرف كما في قوله: ﴿وأنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّه يَدْعُـوهُ كادُوا يكُونون عَلَيه لِبَدًا﴾[٥] ومثل هذا قوله: ﴿ويَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُول ماذا أَجَبْتُمُ المُرْسَلين﴾[٦]﴿ ويَوْمَ يُنَادِيهُمْ فَيقُولُ أين شُركَائي الذين كُنْتُمْ تَزْعَمُون﴾[٧] فإنه وقت النداء بظرف محدود فدل على أن النداء يقع في ذلك الحين دون غيره من الظروف وجعل الظرف للنداء لا لسمع النداء. ومثل هذا قوله تعالى:

---

(١) سورة النمل الآية ٨.

(٢) سورة القصص الآية ٣٠.

(٣) سورة النازعات الآية ١٥ ـ ١٦.

(٤) سورة طه الآية ١١ ـ ١٢.

(٥) سورة الجن الآية ١٩.

(٦) سورة القصص الآية ٦٥.

(٧) سورة القصص الآية ٧٤.

﴿وإذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إنِّي جاعِلٌ في الأرضِ خَلِيفَةً﴾[1] وقوله: ﴿وإذ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدم﴾[2] وأمثال ذلك مما فيه توقيت بعض أقوال الرب بوقت معين فإن الكلابية ومن وافقهم من أصحاب الأئمة الأربعة يقولون إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته بل الكلام المعين لازم لذاته كلزوم الحياة لذاته.

ثم من هؤلاء من يقول أنه معنى واحد لأن الحروف والأصوات متعاقبة يمتنع أن تكون قديمة، ومن قال: بل الحروف والأصوات قديمة الأعيان وأنها مترتبة في ذاتها متقاربة في وجودها لم تزل ولا تزال قائمة بذاته والنداء الذي سمعه موسى قديم أزلي لم يزل ولا يزال، ومنهم من قال بل الحروف قديمة الأعيان بخلاف الأصوات وكل هؤلاء يقولون إن التكليم والنداء ليس إلا مجرد خلق إدراك المخلوق بحيث يسمع ما لم يزل ولا يزال لا أنه يكون هناك كلام يتكلم الله به بمشيئته وقدرته ولا تكليم بل تكليمه عندهم جعل العبد سامعاً لما كان موجوداً قبل سمعه بمنزلة

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٠.

(٢) سورة البقرة الآية ٣٤.

ما جعل الأعمى بصيراً لما كان موجوداً قبل رؤيته من غير أحداث شيء منفصل عن الأعمى، فعندهم لما جاء موسى لميقات ربه سمع النداء القديم لا انه حينئذ نودي، ولهذا يقولون أنه يسمع كلامه لخلقه بدل قول الناس إنه يكلم خلقه وهؤلاء يردون على الخلقية الذين يقولون القرآن مخلوق ويقولون عن أنفسهم أنهم أهل السنة الموافقون للسلف الذين قالوا إن القرآن كلام اللّه غير مخلوق وليس قولهم قول السلف لكن قولهم أقرب إلى قول السلف من وجه وقول الخلقية أقرب إلى قول السلف من وجه، أما كون قولهم أقرب فلأنهم يثبتون للّه كلاماً قائماً بذاته بنفس اللّه وهذا قول السلف بخلاف الخلقية الذين يقولون ليس كلامه إلا ما خلقه في غيره فإن قول هؤلاء مخالف لقول السلف: وأما كون قول الخلقية أقرب فلأنهم يقولون إن اللّه يتكلم بمشيئته وقدرته وهذا قول السلف وهؤلاء عندهم لا يقدر اللّه على شيء من كلامه وليس كلامه بمشيئته واختياره بل كلامه عندهم كحياته وهم يقولون الكلام عندنا صفة ذات لا صفة فعل، والخلقية يقولون صفة فعل لا صفة ذات. ومذهب السلف أنه صفة ذات وفعل معاً فكل منهما موافق السلف

من وجـه دون وجه واختـلافهم في كلام اللَّه تعـالى شبيه اختلافهم في رضاه وغضبه وارادته وكـراهته وحبـه وبغضه وفرحه وسخطه ونحو ذلك، فإن هؤلاء يقولون هذه كلها أمور مخلوقة بائنة عنه ترجع إلى الثـواب والعقاب، والآخـرون يقولون بل هذه كلها أمور قديمة الأعيان قائمة بذاتـه، ثم منهم من يجعلها كلها تعود إلى إرادة واحدة العين متعلقة بجميع المخلوقات، ومنهم من يقول بل هي صفات متعددة الأعيان لكن يقول كل واحدة واحدة العين قديمة قبل وجود مقتضياتها كما قالوا مثل ذلك في الكلام واللَّه تعالى يقول: **﴿ذلِكَ بأَنَّهُمُ اتَّبعـوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَـرِهُوا رِضْـوَانَهُ﴾**[1] فأخبر أن أفعـالهم أسخطتـه، وقال تعـالى: **﴿فَلَمَّا آسَفُـونا انْتَقَمْنَـا مِنهُم﴾**[2] أي أغضبونـا. وقـال تعـالى: **﴿ادعُـوني أستجِب لَكُم﴾**[3] الى أمثال ذلك مما بيّن أنه سخط على الكفار لما كفروا ورضي عن المؤمنين لما آمنوا، ونظير هذا اختلافهم في أفعاله ومسائل القدر فإن المعتزلة يقولون إنه

---

(١) سورة محمد الآية ٢٨ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٥٥ .

(٣) سورة غافر الآية ٦٠ .

يفعل لحكمة مقصودة وإرادة الاحسان إلى العباد لكن لا يثبتون لفعله حكمة تعود إليه، وأولئك يقولون لا يفعل لحكمة ولا لمقصود أصلاً، فأولئك أثبتوا حكمة لكن لا تقوم به، وهؤلاء لا يثبتون له حكمة ولا مقصوداً يتصف به والفريقان لا يثبتون له حكمة ولا مقصوداً يعود إليه وكذلك في الكلام أولئك أثبتوا كلاماً هو فعله لا يقوم به، وهؤلاء يقولون ما لا يقوم به لا يعود حكمته إليه والفريقان يمنعون أن يقوم به حكمة مرادة له كما يمنع الفريقان أن يقوم به كلام وفعل يريده. وقول أولئك أقرب إلى قول السلف. والفقهاء إذا أثبتوا الحكمة والمصلحة في أحكامه وأفعاله أثبتوا كلاماً يتكلم به بقدرته ومشيئته، وقول هؤلاء أقرب الى السلف إذا أثبتوا الصفات وقالوا لا يوصف بمجرد المخلوق المنفصل عنه الذي لم يقم به أصلاً ولا يعود إليه حكم من شيء لم يقم به فلا يكون متكلماً بكلام لم يقم به ولا يكون حكيماً كريماً ورحيماً بحكمة ورحمة لم تقم به كما لا يكون عليماً بعلمم لم يقم به وقديراً بقدرة لم تقم به ولا يكون محباً راضياً غضباناً بحب ورضى وغضب لم يقم به فكل من المعتزلة والأشعرية في مسائل كلام اللّه وأفعال اللّه وافقوا

السلف والأئمة من وجه وخالفوهم من وجه وليس قول أحدهما هو قول السلف دون الآخر لكن الأشعرية في جنس مسائل الصفات بل وسائر صفاته، والقدر أقرب إلى قول السلف دون الآخر والأئمة من المعتزلة.

فإن قيل فقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[1] وهذا يدل على هذا أن الرسول أحدث الكلام العربي. قيل هذا باطل وذلك لأن اللَّه ذكره في القرآن في موضعين فالرسول في أحد الموضعين محمد والرسول في الآية الأخرى جبريل قال تعالى في سورة الحاقة: **﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَما هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ. وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ﴾**[2] فالرسول هنا محمد ﷺ، وقال في سورة التكوير: **﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي العَرْشِ مَكِينٍ مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾**[3] فالرسول هنا جبريل فلو كان إضافة إلى الرسول لكونه أحدث حروفه أو أحدث منه شيئاً لكان الخبران

---

(١) سورة الحاقة الآية ٤٠.

(٢) سورة الحاقة الآية ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣.

(٣) سورة التكوير الآية ٢٠.

متناقضين فإنه إن كان أحدهما هو الذي أحدثها امتنـع أن يكون الآخر هو الذي أحدثها وأيضاً فإنه قال لقـول رسول كريم ولم يقل لقـول ملك ولا نبي ولفظ الرسـول يستلزم مرسلاً له فدل ذلك على أن الرسول مبلغ له عن مرسله لا أنه أنشأ منه شيئاً من جهة نفسه، وهذا يدل على أنه أضافه الى الرسول لأنه بلغه وأداه لا لأنه أنشأ منه شيئاً ولا ابتدأه وأيضاً فإن اللّه قد كَفَّر من جعله قول البشر بقوله: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثمَّ نَظَرَ. ثمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَر. فَقالَ إنْ هذا إلَّا سِحْرٌ يؤثرُ. إنْ هذا إلَّا قَوْلُ البَشَرِ﴾[1] ومحمد بشر فمن قال إنه قول محمد فقد كفر ولا فرق بين أن يقول هو قول بشر أو جني أو ملك فمن جعله قولاً لأحد من هؤلاء فقد كفر، ومع هذا فقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَما هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾[2] فجعله قول الرسول البشري مع تكفير من يقول إنه قول البشر فعلم أن المراد بذلك أن الرسول بلغه عن مرسله لا إنه قول له من تلقاء نفسه وهو كلام اللّه الذي أرسله كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ

---

(١) سورة المدثر الآيات ١٨ ـ ٢٥.

(٢) سورة الحاقة الآية ٤١.

أحدٌ مِنَ المُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾[1] فالذي بلّغه الرسول هو كلام اللَّه لا كلامه ولهذا كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس بالمواسم ويقول: «ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي»[2] وغيره والكلام كلام اللَّه من قاله مبتدئاً لا كلام من قاله مبلغاً مؤدياً وموسى سمع كلام اللَّه من اللَّه بلا واسطة والمؤمنون يسمعه بعضهم من بعض فسماع موسى مطلق بلا واسطة وسماع الناس سماع مقيد بواسطة كما قال تعالى: **﴿وَمَا كَانَ لِبَشَر أَنْ يُكلِّمَهُ اللَّهُ إلا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاء حِجاب أو يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحى بإِذْنِهِ ما يَشاءُ﴾**[3] ففرق بين التكليم من وراء حجاب كما كلم موسى وبين التكليم بواسطة الرسول كما كلم الأنبياء بإرسال رسول إليهم والناس يعلمون أن النبي ﷺ إذا تكلم بكلام تكلم به بحروفه ومعانيه بصوته ﷺ ثم المبلغون عنه يبلغون كلامه بحركاتهم وأصواتهم كما قال ﷺ: «نضّر اللَّه أمراً سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه» فالمستمع منه

---

(١) سورة التوبة الآية ٦.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) سورة الشورى الآية ٥١،

يبلغ حديثه كما سمعه لكن بصوت نفسه لا بصوت الرسول فالكلام كلام الرسـول تكلم به بصـوته والمبلغ بلغ كـلام الرسول بصوت نفسه وإذا كان هذا معلوماً فيمن يبلغ كلام المخلوق فكلام الخالق أولى بذلك، ولهـذا قال تعـالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فأَجِرْهُ حتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾[1] وقال النبي ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»[2] فجعل الكلام كلام الباري وجعل الصوت الذي يقرأ به العبد صوت القارىء وأصوات العباد ليست هي عين الصوت الذي ينادي اللَّه به ويتكلم به كما نطقت النصوص بذلك بل ولا مثله فإن اللَّه ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا أفعاله فليس علمه مثل علم المخلوقين ولا قدرته مثل قدرتهم ولا كلامه مثل كلامهم ولا نـداؤه مثل نـدائهم ولا صوتـه مثل أصواتهم فمن قال عن القرآن الذي يقرؤه المسلمون ليس هو كلام اللَّه أو هو كلام غيره فهو ملحد مبتدع ضال، ومن قال إن أصوات العباد والمداد الذي يكتب به القرآن قديم

---

(١) سورة التوبة الآية ٦.

(٢) رواه البخاري في التوحيد ورواه أبو داوود ورواه النسائي وابن ماجه والدارمي في فضائل القرآن ورواه الإمام أحمد.

أزلي فهو ملحد مبتدع ضال بل هذا القرآن وهو كلام اللَّه وهو مثبت في المصاحف وهو كلام اللَّه مبلغاً عنه مسموعاً من القراء ليس هو مسموعاً منه والانسان يرى الشمس والقمر والكواكب بطريق المباشرة ويراها في ماء أو مرآة فهذه رؤية مفيدة بالواسطة وتلك رؤية مطلقة بطريق المباشرة وكذلك الكلام لم يسمع من المتكلم به بطريق المباشرة ويسمع المبلغ عنه بواسطة والمقصود بالسماع هو كلامه في الموضعين كما أن المقصود في الرؤية هو المرئي في الموضعين.

فمن عرف ما بين الحالين من الاجتماع والإفتراق والإختلاف والاتفاق زالت عنه الشبهة التي تصيب كثيراً من الناس في هذا الباب فإن طائفة قالت هذا المسموع كلام اللَّه والمسموع صوت العبد وصوته مخلوق فكلام اللَّه مخلوق وهذا جهل فإنه مسموع من المبلغ ولا يلزم إذا كان صوت المبلغ مخلوقاً أن يكون نفس الكلام مخلوقاً . وقالت طائفة هذا المسموع كلام اللَّه وهذا جهل فإن المخلوق هو الصوت لا نفس الكلام الذي يسمع من المتكلم به ومن المبلغ عنه . وطائفة قالت هذا كلام اللَّه وكلام اللَّه غير

مخلوق فيكون هذا الصوت غير مخلوق وهذا جهل فإنه إذا قيل هذا كلام اللَّه فالمشار إليه الكلام من حيث هو وهو الثابت إذا سمع من اللَّه وإذا سمع من المبلغ عنه وإذا قيل للمسموع أنه كلام اللّه فهو كلام اللَّه مسموعاً من المبلغ عنه لا مسموعاً عنه فهو مسموع بواسطة صوت العبد وصوت العبد مخلوق. وأما كلام اللَّه نفسه فهو غير مخلوق حيث ما تصرف وهذه نكت قد بسط الكلام فيها في غير هذا الموضع.

فإن قيل ما منشأ هذا النزاع والتفرق والاختلاف، قيل منشأه هو الكلام الذي ذمه السلف وعابوه وهو الكلام المشتبه المشتمل على حق وباطل فيه ما يوافق العقل والسمع وفيه ما يخالف العقل والسمع فيأخذ هؤلاء جانب النفي المشتمل على نفي الحق والباطل وهؤلاء جانب الإثبات المشتمل على إثبات حق وباطل وباطله هو المخالف للكتاب والسنّة وإجماع السلف فكل كلام خالف ذلك فهو باطل ولا يخالف ذلك إلا كلام مخالف للعقل والسمع وذلك أنه لما تناظروا في مسألة حدوث العالم واثبات الصانع فاستدلت الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم من طوائف أهل الكلام على ذلك بأن ما لا يخلو عن الحوادث

فهو حادث ثم أن المستدلين بذلك على حدوث الأجسام قالوا إن الأجسام لا تخلو عن الحوادث وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ثم تنوعت طرقهم في المقدمة الأولى فتارة يثبتونها بأن الأجسام لا تخلو عن الحركة والسكون وهما حادثان وتارة يثبتونها بأن الأجسام لاتخلو عن الإجتماع والافتراق وهما حادثان وتارة يثبتونها بأن الأجسام لا تخلو عن الأكوان الأربعة الاجتماع والافتراق والحركة والسكون وهي حادثة، وهذه طرق المعتزلة(١) ومن وافقهم على أن الأجسام قد تخلو عن بعض أنواع الأعراض وتارة يثبتونها بأن الجسم لا يخلو من كل جنس من الأعراض عن عرض منه ويقولون القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده ويقولون أن الأعراض يمتنع بقاؤها لأن العرض لا يبقى زمانين وهذه الطريقة هي التي اختارها الآمدي وزيف ما سواها، وذكر أن جمهور أصحابه اعتمدوا عليها وقد وافقهم عليها طائفة من الفقهاء من أصحاب الأئمة كالقاضي أبي يعلى وأبي المعالي

---

(١) المعتزلة : هم جماعة من المسلمين اعتمدوا على المنطق والقياس في مناقشة القضايا الكلامية . وأشهر المعتزلة : واصف بن عطاء ، وعمر بن عبيد اللذان انفصلا عن الحسن البصري .

الجويني[1] وأبي الوليد الباجي[2] وأمثالهم. وأما الهشامية والكرامية وغيرهم من الطوائف الذين لا يقولون بحدوث كل جسم ويقولون أن القديم تقوم به الحوادث فهؤلاء إذا قالوا بأن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث كما هو قول الكرامية وغيرهم موافقة للمعتزلة في هذا الأصل فإنهم يقولون الجسم القديم يخلو عن الحوادث بخلاف الأجسام المحدثة فإنها لا تخلو عن الحوادث والناس متنازعون في السكون هل هو أمر وجودي أو عدمي فمن قال إنه وجودي قال الجسم الذي لا يخلو عن الحركة والسكون إذا انتفت عنه الحركة قام به السكون الوجودي وهذا قول من يحتج بتعاقب الحركة والسكون على حدوث المتصف بذلك ومن قال إنه عدميّ لم يلزم من عدم الحركة عن المحل ثبوت سكون وجودي فمن قال إنه تقوم به الحركة والحوادث بعد أن لم

---

(١) أبو المعالي الجويني: تقدم شرحه.

(٢) أبو الوليد الباجي: هو سليمان بن خلف بن سعد التجيني القرطبي، أبو الوليد، فقيه مالكي كبير من رجال الحديث، ولد في باجة (الأندلس) عام ٤٠٣ هـ، الموافق ١٠١٢ م، ورحل إلى الحجاز سنة ٤٢٦ هـ، فمكث فيها ثلاثة أعوام، وأقام ببغداد، توفي بالمرية عام ٤٧٤ هـ، الموافق ١٠٨١ م.

يكن مع قوله بامتناع تعاقب الحوادث كما هو قول الكرامية وغيرهم ويقولون إذا قامت به الحركة لم يعدم بفنائها سكون وجودي بل ذلك عندهم بمنزلة قولهم مع المعتزلة والأشعرية وغيرهم أنه يفعل بعد إن لم يكن فاعلاً ولا يقولون أن عدم الفعل أمر وجودي كذلك الحركة عند هؤلاء وكان كثير من أهل الكلام يقولون ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث أو ما لا يسبق الحوادث فهو حادث بناء على أن هذه مقدمة ظاهرة فإن ما لا يسبق الحادث فلا بد أن يقارنه أو يكون بعده وما قارن الحادث فهو حادث وما كان بعده فهو حادث.

وهذا الكلام مجمل فإذا أريد ما لا يخلو عن الحادث المعين أو ما لا يسبق الحادث المعين فهو حق بلا ريب ولا نزاع فيه وكذلك إذا أريد بالحادث جملة ماله أول أو ما كان بعده العدم ونحو ذلك وأما إذا أريد بالحوادث الأمور التي تكون شيئاً بعد شيء لا إلى أول، وقيل إنه لا يخلو عنها وما لم يخل عنها فهو حادث لم يكن ذلك ظاهراً ولا بيّناً بل هذا مقام حار فيه كثير من الأفهام وكثر فيه النزاع والخصام ولهذا صار المستدلون بقولهم ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث يعلمون أن هذا الدليل لا يتم إلا إذا أثبتوا امتناع حوادث لا

أول لها فذكروا في ذلك طرقاً قد تكلمنا عليها في غير هذا الموضع.

وهذا الأصل تنازع الناس فيه على ثلاثة أقوال: فقيل ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث وبامتناع حوادث لا أول لها مطلقاً وهذا قول المعتزلة ومن اتبعهم من الكرامية والأشعرية ومن دخل في ذلك من الفقهاء وغيرهم. وقيل بل يجوز دوام الحوادث مطلقاً وليس كل ما قارن حادثاً بعد حادث لا إلى أول يجب أن يكون حادثاً بل يجوز أن يكون قديماً سواء كان واجباً بنفسه أو بغيره وربما عبر عنه بالعلة والمعلول والفاعل والمفعول ونحو ذلك وهذا قول الفلاسفة القائلين بقدم الأفلاك كأرسطو وأتباعه مثل ثامسطيوس[1]، والاسكندر[2]..

(١) ثامسطيوس: من علماء اليونان، ومن أشهر تلامذة أرسطو، أجاد في علم الفلسفة، وله عدة مؤلفات.

(٢) الإسكندر: (٣٥٦ ـ ٣٢٤) ق.م. الملقب بذي القرنين، ولد في مقدونية وتوفي في بابل، تعلم على أرسطو، خلف أباه فيلبس، وعزم على فتح امبراطورية الفرس فانتصر عليهم في إيسوس ٣٣٣ ق.م. ثم في سواحل فينيقيا بعد أن حاصر صور سبعة أشهر ثم في مصر حيث أسس الاسكندرية ٣٣٢ ق.م.

الافـريـديـوسي، وبـرقليس[1]، والفـارابي[2]، وابن سينـا وأمثالهم.

وأمـا جمهورالفـلاسفة المتقـدمين على أرسـطو فلم يكونوا يقولون بقدم الأفلاك، ثم الفلاسفة من هؤلاء وهؤلاء متنازعون في قيام الصفات والحوادث بواجب الوجود على قـولين معروفين لهم وأثبت ذلـك قول كثيـر من الأساطين القدماء وبعض المتأخرين كأبي البركـات صاحب المعتبـر وغيره كما بسطت أقوالهم في غير هذا الموضع وقيل بل إن كان المستلزم للحوادث ممكناً بنفسه وأنه هو الذي يسمى مفعولاً ومعلولاً ومربوباً ونحو ذلك من العبـارات وجب أن يكون حادثاً وإن كان واجباً بنفسه لم يجب أن يكون حادثاً وهذا قول أئمة أهل الملل وأسـاطين الفلاسفـة وهو قـول جماهير أهل الحديث وصاحب هذا القول يقول ما لا يخلو

---

(١) برقليسن: من فلاسفة اليونان.

(٢) الفارابي: هو محمد بن محمد بن طرخان ابن اوزلغ أبو نصر الفارابي، أكبر فلاسفة المسلمين، تركي الأصل، ولد في فاراب سنة ٢٦٠هـ الموافق ٨٧٤م. اتصل بسيف الدولة ابن حمدان، وتوفي بدمشق عام ٣٣٩هـ، الموافق ٩٥٠م.

عن الحوادث وهو ممكن بنفسه فهو حادث أو ما لا يخلو عن الحوادث وهو معلول أو مفعـول أو مبتدع أو مصنـوع فهو حادث لأنه إذا كان مفعولاً مستلزماً للحوادث امتنع أن يكون قديماً فإن القديم المعلول لا يكون قديماً إلا إذا كان له موجب قديم بذاته يستلزم معلوله بحيث يكون أزلياً لا يتأخر عنه وهذا ممتنع فإن ما استلزم الحوادث يمتنع أن يكون فاعلاً موجباً بذاته يستلزم معلوله في الأزل فإن الحوادث المتعاقبة شيئاً بعد شيء لا يكون مجموعها في الأزل ولا شيء منها أزلياً بل الأزلي هو دوامهـا واحداً بعـد واحد والمـوجب بذاتـه والمستلزم لمعلوله في الأزل لا يكون معلوله شيئاً بعد شيء سواء كان صادراً عنه بواسطة أو بغيـر واسطة فـإن ما كـان واحداً بعد واحد يكون متعاقباً حادثاً شيئاً بعد شيء، فيمتنع أن يكون معلولاً مقارناً لعلته في الأزل بخلاف ما إذا قيل إن المقارن لذلك هو الواجب بذاته الذي يفعل شيئاً بعد شيء فإنـه على هذا التقدير لا يكون في الأزل موجباً بذاته ولا علة تـامة لشيء من العـالم فلا يكـون معـه في الأزل من المخلوقات شيء لكن فاعليته للمفعولات تكون شيئاً بعد شيء وكل مفعول يوجد عند وجود كمال فاعليته إذ المؤثر

التام المستلزم لجميع شروط التأثير لا يتخلف عنه أثره إذ لو لم يكن مؤثراً تاماً فوجود الأثر يستلزم وجود المؤثر التام ووجود المؤثر التام يستلزم وجود الأثر فليس في الأزل مؤثر تام فليس مع اللّه شيء من مخلوقاته قديم بقدمه والأزل ليس هو حداً محدوداً ولا وقتاً معيناً بل كل ما يقدره العقل من الغاية التي ينتهي إليها فالأزل قبل ذلك كما هو قبل ما قدره فالأزل لا أول له كما أن الأبد لا آخر له، وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء**» فلو قيل أنه مؤثر تام في الأزل لشيء من الأشياء لزم أن يكون مقارناً له دائماً وذلك ينافي كونه مفعولاً له وإنما يصح مثل هذا في الصفة اللازمة للموصوف فإنه إذا قيل الذات مقتضى تام للصفة كان المعنى أن الذات مستلزمة للصفة ليس المراد بذلك أن الذات مبتدعة للصفة فإنه إذا تصور معنى المبتدع امتنع في المقارن بصريح المعقول سواء سمي علة فاعلة أو خالقاً أو غير ذلك وامتنع أن يقوم بالأثر شيء من الحوادث لأن كل حادث يحدث لا يحدث إلا إذا وجد مؤثره التام عند حدوثه وإن كانت ذات المؤثرة موجودة قبل ذلك لكن لا بد من

كمال وجود شروط التأثير عند وجود الأثر وإلا لزم الترجيح بلا مرجح وتخلف المعلول عن العلة التامة ووجود الممكن بدون المرجح التام، وكل هذا ممتنع فامتنع أن يكون مؤثر الشيء من الحوادث في الأزل وامتنع أن يكون مؤثراً في الأزل فيما يستلزم الحوادث لأن وجود الملزوم بدون اللازم محال فامتنع أن يكون المفعول المستلزم للحوادث قديماً.

وإذا قيل ذاته مقتضية للحادث الثاني انقضاء الأول، قيل فليس هو مقتضياً لشيء واحد دائماً فلا يكون معه قديم من مفعولاته، وقيل أيضاً هذا إنما يكون إذا كانت لذاته أحوال متعاقبة تختلف المفعولات لأجلها فأما إذا قدر أن لا يقوم بها شيء من الأحوال المتعاقبة بل حالها عند وجود الحادث كحالها قبله، كان امتناع فعله للحوادث المتعاقبة البائنة أعظم من امتناع فعله لحادث معين فإذا كان الثاني ممتنعاً عندهم فالأول أولى بالإمتناع ومتى كان للذات أحوال متعاقبة تقوم بها بطلت كل حجة لهم على قدم شيء من العالم وامتنع أيضاً قدم شيء من العالم إذا كان المفعول لا بد له من فعل حادث والفعل الحادث لا يكون مفعوله إلا حادثاً وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

وإذا عرف الأصل الذي منه تفرع نزاع الناس في مسألة كلام اللّٰه فالذين قالوا ما لا يسبق الحوادث فهو حادث مطلقاً تنازعوا في كلام اللّٰه تعالى، فقال كثير من هؤلاء الكلام لا يكون إلا بمشيئة المتكلم وقدرته فيكون حادثاً كغيره من الحوادث ثم قالت طائفة والرب لا يقوم به الحوادث فيكون الكلام مخلوقاً في غيره، فجعلوا كلامه مخلوقاً من المخلوقات ولم يفرقوا بين قال وفعل، وقد علم أن المخلوقات لا يتصف بها الخالق فلا يتصف بما يخلقه في غيره من الألوان والأصوات والروائح والحركة والعلم والقدرة والسمع والبصر فكيف يتصف بما يخلقه في غيره من الكلام ولو جاز ذلك لكان ما يخلقه من انطاق الجمادات كلامه ومن علم أنه خالق كلام العباد وأفعالهم يلزم أن يقول كل كلام في الوجود فهو كلامه كما قال بعض الإتحادية:

وكل كلام في الوجود كلامه
سواء علينا نثره ونظامه

وهذا قول الجهمية والنجارية والضرارية وغيرهم فإن هؤلاء يقولون إنه خالق أفعال العباد وكلامهم مع قولهم

إن كلامه مخلوق فيلزمهم هذا وأما المعتـزلة فـلا يقولـون إن اللّٰه خـالق أفعـال العبـاد لكن الحجـة تـوجب القـول بذلك. وقالت طائفة بل الكـلام لا بد أن يقـوم بالمتكلم ويمتنـع أن يكـون كـلامـه مخلوقـاً في غيـره وهـو متكلم بمشيئتـه وقدرتـه فيكـون كـلامـه حـادثـاً بعـد إن لم يكن لامتنـاع حوادث لا أول لهـا وهذا قـول الكراميـة وغيرهم ثم من هؤلاء من يقـول كـلامـه كله حـادث لا محـدث، ومنهم من يقـول هـو حـادث ومحـدث. وقـال كثيـر من هؤلاء الذين يقولـون بامتنـاع حوادث لا أول لهـا مطلقـاً، الكـلام لازم لذات الـرب كلزوم الحيـاة ليس هـو متعلقـاً بمشيئته وقدرته بل هو قديم كقدم الحياة إذ لو قلنا أنه بقدرته ومشيئته لزم أن يكون حادثاً وحينئذ فيلزم أن يكون مخلوقاً أو قـائماً بـذات الرب فيلزم قيـام الحوادث بـه وذلك يستلزم تسلسل الحوادث لأن القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده، قالوا وتسلسل الحوادث ممتنع إذا التفريع على هذا الأصل، ثم إن هؤلاء لمـا قالـوا بقدم عين الكـلام تنازعـوا فقالت طائفة القديم لا يكون حروفاً ولا أصواتاً لأن الصوت يستحيل بقـاؤه كمـا يستحيـل بقـاء الحـركـة ومـا امتنـع بقــاؤه

امتنع قدم عينه بطريق الأولى والأخرى فيمتنع قدم شيء من الأصوات المعينة كما يمتنع قدم شيء من الحركات المعينة، لأن تلك لا تكون كلاماً إلا إذا كانت متعاقبة والقديم لا يكون مسبوقاً بغيره فلو كانت الميم من بسم اللّه قديمة مع كونها مسبوقة بغيرها لكان القديم مسبوقاً بغيره وهذا ممتنع فيلزم أن يكون القديم هو المعنى فقط، ولا يجوز تعدده لأنه لو تعدد لكان اختصاصه بقدر دون قدر ترجيحاً بلا مرجح، وإن كان لا يتناهى لزم وجود أعداد لا نهاية لها في آن واحد قالوا وهذا ممتنع فيلزم أن يكون معنى واحداً هو الأمر والخبر وهو معنى التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وهذا أصل قول الكلابية والأشعرية. وقالت طائفة من أهل الكلام والحديث والفقهاء وغيرهم بل هو حروف قديمة الأعيان لم تزل ولا تزال وهي مترتبة في ذاتها لا في وجودها كالحروف الموجودة في المصحف وليس بأصوات قديمة، ومنهم من قال بل هو أيضاً أصوات قديمة ولم يفرق هؤلاء بين الحروف المنطوقة التي لا توجد إلا متعاقبة وبين الحروف المكتوبة التي توجد في آن واحد كما يفرق بين الأصوات والمداد فإن الأصوات

لا تبقى بخلاف المداد فإنه جسم يبقى وإذا كان الصوت لا يبقى امتنع أن يكون الصوت المعين قديماً لأن ما وجب قدمه لزم بقاؤه وامتنع عدمه والحروف المكتوبة قد يراد بها نفس الشكل القائم بالمداد أو ما يقدر بقدر المداد كالشكل المصنوع في حجر وورق بإزالة بعض أجزائه وقد يراد بالحروف نفس المداد. وأما الحروف المنطوقة فقد يراد بها أيضاً الأصوات المقطوعة المؤلفة وقد يراد بها حدود الأصوات وأطرافها، كما يراد بالحروف في الجسم حده ومنتهاه فيقال حد الرغيف وحد الجبل ونحو ذلك، ومن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدِ اللَّهَ على حَرْفٍ﴾[1] وقد يراد بالحروف الحروف الخالية الباطنة وهو ما يتشكل في باطن الإنسان من الكلام المؤلف المنظوم قبل أن يتكلم به.

وقد تنازع الناس هل يمكن وجود حروف بدون أصوات في الحي الناطق على قولين لهم وعلى هذا تنازعت هذه الطائفة القائلة بقدم أعيان الحروف، هل تكون قديمة بدون أصوات قديمة أم لا بد من أصوات قديمة أم لم تزل ولا تزال.

---

(١) سورة الحج الآية ١١.

ثم القائلون بقدم الأصوات المعينة تنازعوا في المسموع من القارىء هل يسمع منه الصوت القديم فقيل المسموع هو الصوت القديم وقيل بل المسموع صوتان أحدهما القديم والآخر المحدث فما لا بد منه في وجود القرآن فهو القديم وما زاد على ذلك فهو المحدث، وقيل بل الصوت القديم غير المسموع من العبد وتنازعوا في القرآن هل يقال أنه حال في المصحف والصدور أم لا يقال ذلك على قولين فقيل هو ظاهر في المحدث ليس بحال فيه، وقيل بل القرآن حال في الصدور والمصاحف فهؤلاء الخلقية والحادثية والاتحادية والاقترانية أصل قولهم أن ما لا يسبق الحوادث فهو حادث مطلقاً، ومن قال بهذا الأصل فإنه يلزم به بعض هذه الأقوال أو ما يشبه ذلك فإن من الناس من يجعله حادثاً يريد أن يكون بعد أن لم يكن ويجعل الحادثات إرادات وتصورات لا حروف وأصوات والداربي وغيره يميلون إلى هذا القول فإنه إما أن يجعل كلام اللَّه حادثاً أو قديماً وإذا كان حادثاً فإما أن يكن حادثاً في غيره وأما أن يكون حادثاً في ذاته وإذا كان قديماً فإما أن يكون القديم المعنى فقط أو اللفظ فقط أو كلاهما فإذا كان

القديم هو المعنى فقط لزم أن لا يكون الكلام العربي كلام اللَّه ثم الكلام في ذلك المعنى قد عرف. وأما قدم اللفظ فهذا لم يقل به أحد لكن من الناس من يقول أن الكلام القديم هو اللفظ، وأما في معناه فليس هو داخلاً في مسمى الكلام بل هو العلم والإرادة وهما قديمان لكن ليس ذلك داخلاً في مسمى الكلام فهذا يقول الكلام القديم هو اللفظ فقط أما الحروف المؤلفة وأما الحروف والأصوات لكنه يقول أن معناه قديم.

وأما الفريق الثاني الذين قالوا بجواز حوادث لا أول لها مطلقاً وأن القديم الواجب بنفسه يجوز أن يتعقب عليه الحوادث مطلقاً إن كان ممكناً لا واجباً بنفسه فهؤلاء القائلون بقدم العالم كما يقولون بقدم الأفلاك وإنها لم تزل ولا تزال معلولة لعلة قديمة أزلية لكن المنتسبون إلى الملل كابن سينا ونحوه منهم قالوا إنها صادرة عن الواجب بنفسه الموجب لها بذاته وأما أرسطو وأتباعه فإنهم قالوا إن لها علة غائية تتحرك للتشبه بها فهي تحركها كما يحرك المعشوق عاشقه ولم يثبتوا لها مبدعاً ولا موجباً بذاته وإنما أثبت واجب الوجود بطريقة الوجود ابن سينا وأمثاله.

وحقيقة قول هؤلاء وجود الحوادث بلا محدث أصلاً، أما على قول من جعل الأول علة غائية للحركة فظاهر، فإنه لا يلزم من ذلك أن يكون هو فاعلاً لها فقولهم في حركة الأفلاك نظير قول القدرية في حركة الحيوان وكل من الطائفتين قد تناقض قولهم فإن هؤلاء يقولون بأن فعل الحيوان صادر عن غيره لكون القدرة والداعي مستلزمين وجود الفعل والقدرة والداعي كلاهما من غير العبد.

فيقال لهم فقولوا هكذا في حركة الفلك وقدرته وداعيه فإنه يجب أن يكونا صادرين عن غيره وحينئذ فيكون الواجب موجباً بنفسه هو المحدث لتلك الحوادث شيئاً بعد شيء وإن كان ذلك بواسطة العقول وهذا القول هو الذي يقوله ابن سينا وأتباعه وهو باطل أيضاً لأن الموجب بذاته القديم الذي يقارنه موجبه ومقتضاه يمتنع أن يصدر عنه حادث بواسطة أو بلا واسطة فإن صدور الحوادث عن العلة التامة الأزلية ممتنع لذاته. وإذا قالوا الحركة متوسطة أي حركة الفلك، قيل لهم فالكلام إنما هو في حدوث الحركة الفلكية فإن الحركة الحادثة شيئاً بعد شيء يمتنع أن يكون المقتضى لها علة

تامة أزلية مستلزمة لمعلولها فإن ذلك جمع بين النقيضين إذ القول بمقارنة المعلول لعلته في الأزلية ووجوده معها يناقض أن يتخلف المعلول أو شيء من المعلول عن الأزل بل يمتنع أن يكون المقتضى لها ذاتاً بسيطة لا يقوم بها شيء من الصفات والأحوال المقتضية لحدوث الحوادث المتعاقبة المختلفة بل يمتنع أن يكون المقتضى لها ذاتاً موصوفة لا يقوم بها شيء من الأحوال الموجبة لحدوث الحوادث المذكورة فإن التحدد والتعدد والموجود في المعلولات لا يمتنع صدوره عن علة واحدة بسيطة من كل وجه فصار حقيقة قولهم أن الحوادث العلوية والسفلية لا محدث لها وهؤلاء يقولون كلام اللَّه ما يفيض على النفوس الصافية كما أن ملائكة اللَّه عندهم ما يتشكل فيها من الصور النورانية فلا يثبتون له كلاماً خارجاً عما في نفوس البشر ولا ملائكة خارجة عما في نفوسهم غير العقول العشرة والنفوس الفلكية التسعة مع أن أكثرهم يقولون أنها أعراض وقد بين في غير هذا الموضع أن ما يثبتونه من المجردات العقلية التي هي العقول والنفوس والمواد والصور إنما وجوده في الأذهان لا في الأعيان.

وأما الصنف الثالث الذين فرقوا بين الواجب والممكن والخالق والمخلوق والغني الذي لا يفتقر إلى غيره والفقير الذي لا قوام له بالغنى فقالوا إن ما قارن الحوادث من الممكنات فهو محدث كائن بعد أن لم يكن وهو مخلوق مصنوع مربوب وأنه يمتنع أن يكون فيما هو فقير ممكن مربوب شيء قديم فضلاً أنه يقارنه حوادث لا أول لها، ولهذا كانت حركات الفلك دليلاً على حدوثه كما تقدم التنبيه على ذلك. وأما الرب تعالى إذا قيل لم يزل متكلماً إذا شاء أو لم يزل فاعلاً لما يشاء لم يكن دوامه كونه متكلماً بمشيئته وقدرته ودوام كونه فاعلاً بمشيئته وقدرته ممتنعاً بل هذا هو الواجب لأن الكلام صفة كمال لا نقص فيه فالرب أحق أن يتصف بالكلام من كل موصوف بالكلام إذ كل كمال لا نقص فيه ثبت للمخلوق، فالخالق أولى به لأن القديم الواجب الخالق أحق بالكمال المطلق من المحدث الممكن المخلوق، ولأن كل كمال ثبت للمخلوق فإنما هو من الخالق وما جاز اتصافه به من الكمال وجب له، فإنه لو لم يجب له لكان إما ممتنعاً وهو محال بخلاف الفرض، وإما ممكناً فيتوقف ثبوته له على غيره والرب لا يحتاج في ثبوت

كماله إلى غيره، فإن معطي الكمال أحق بالكمال فيلزم أن يكون غيره أكمل منه لو كان غيره معطياً له الكمال، وهذا ممتنع بل هو بنفسه المقدسة مستحق لصفات الكمال فلا يتوقف ثبوت كونه متكلماً على غيره فيجب ثبوت كونه متكلماً، وأن ذلك لم يزل ولا يزال والمتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام لازماً له بدون قدرته ومشيئته والذي لم يزل متكلماً إذا شاء أكمل ممن صار الكلام يمكنه بعد أن لم يكن الكلام ممكناً له، وحينئذ فكلامه قديم مع أنه يتكلم بمشيئته وقدرته وإن قيل أنه ينادي ويتكلم بصوت ولا يلزم من ذلك قدم صوت معين، وإذا كان قد تكلم بالتوراة والقرآن والإنجيل بمشيئته وقدرته لم يمتنع أن يتكلم بالباء قبل السين وإن كان نوع الباء والسين قديماً، لم يستلزم أن يكون الباء المعينة والسين المعينة قديمة لما علم من الفرق بين النوع والعين وهذا الفرق ثابت في الإرادة والكلام والسمع والبصر وغير ذلك من الصفات وبه تنحل الإشكالات الواردة على وحدة هذه الصفات وتعددها وقدمها وحدوثها وكذلك تزول به الإشكالات الواردة في أفعال الرب وقدمها وحدوثها وحدوث العالم.

وإذا قيل إن حروف المعجم قديمة بمعنى النوع كان ذلك ممكناً بخلاف ما إذا قيل إن عين اللفظ الذي نطق به زيد وعمرو قديم فإن هـذا مكابـرة للحس والمتكلم يعلم أن حروف المعجم كانت موجودة قبل وجوده بنوعها، وأما نفس الصوت المعين الذي قام به أو التقـطيع أو التـأليف المعين لذلك الصوت فيعلم أن عينه لم يكن موجوداً قبله والمنقول عن الإمام أحمد وغيره من أئمة السنة مطابق لهذا القـول ولهذا أنكـروا على من زعم أن حرفـاً من حـروف المعجم مخلوق وأنكـروا على من قـال: لمـا خلق اللّه الحروف سجدت له إلا الألف فقالت لا أسجد حتى أومر مع أن هذه الحكاية نقلت لأحمد عن سـري السقطي[1] وهـو نقلها عن بكر بن خـنيس العـابد ولم يكن قصد الشيوخ بها إلا بيان أن العبد الذي يتوقف فعله على الأمر والشرع هو أكمل من العبد الذي يعبد اللّه بغير شرع فإن كثيراً من العباد

---

(١) سري السقطي: أبو الحسن، من كبار المتصوفة بغدادي المولد والوفاة، وهو أول من تكلم في بغـداد بلسان التـوحيد وأحـوال الصـوفيـة. كـان إمـام البغـداديين وشيخهم في وقته، وهـو خال الجنيد وأستـاذه، تـوفي عـام ٢٥٣ هـ، الموافق ٨٦٧ م.

يعبدون اللّه بما تحبه قلوبهم وإن لم يكونـوا مأمـورين به فقصد أولئك الشيوخ أن من عبد اللّه بالأمر ولم يفعل شيئاً حتى يؤمر به فهو أفضل ممن عبده بما لم يؤمر به وذكروا هذه الحكاية الإسرائيلية شاهداً لذلك مع أن هذه لا إسناد لها ولا يثبت بها حكم ولكن الاسرائيليات إذا ذكرت على طـريق الإستشهاد بها لما عرف صحته لم يكن بذكرها بأس وقصدوا بذلك الحروف المكتوبـة لأن الألف منتصبة وغيـرها ليس كذلك مع أن هذا أمر اصطلاحي وخط غير العربي لا يماثل خط العربي ولم يكن قصد أولئك الأشياخ أن نفس الحروف المنطوقة التي هي مباني أسماء اللّه الحسنى وكتبه المنزلة مخلوقة بائنة عن اللّه بل هذا شيء لعله لم يخطر بقلوبهم والحروف المنطوقة لا يقال فيها إنها منتصبة ولا ساجدة فمن احتج بهذا من قولهم على أنهم يقولون إن اللّه لم يتكلم بالقرآن العربي ولا بالتـوراة العبريـة فقد قـال عنهم ما لم يقولوه. وأما الإمام أحمد فإنه أنكر إطلاق هذا القـول وما يفهم منه عند الإطلاق وهو أن نفس حروف المعجم مخلوقة كما نقل عنه أنه قال ومن زعم أن حرفاً من حروف المعجم مخلوق فقد سلك طريقاً إلى البدعة فإنه إذا قال أن ذلـك

مخلوق فقد قال إن القرآن مخلوق أو كما قال: ولا ريب أن من جعل نوع الحروف بائناً عن اللّٰه كائناً بعد أن لم يكن لزم أن يكون كلام اللّٰه العربي والعبري ونحوهما مخلوقاً وامتنع أن يكون اللّٰه تكلم به بكلامه الذي أنزلـه على عبده فـلا يكون شيء من ذلك كلامه فطريقة الإمام أحمد وغيره من السلف مـطابقة للقـول الثالث المـوافق لصريـح المعقول وصحيح المنقول[1].

وقال الشيخ الإمام أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرخي الشافعي في كتابه الذي سماه الفصول في الأصول سمعت الإمـام أبا منصـور محمد بن أحمـد يقول سمعت الإمام أبا بكر عبد اللّٰه بن أحمد يقول سمعت الشيـخ أبا حامد الاسفـرايني يقول مـذهبي ومذهب الشـافعي وفقهاء الأمصار أن القرآن كلام اللّٰه غير مخلوق ومن قال أنه مخلوق فهو كافر والقرآن حمله جبريل عليه السلام مسموعاً من اللّٰه والنبي ﷺ سمعه من جبريل والصحابة سمعوه من رسـول

(١) المشهور أن الإمام أحمد أنكر على من يقول لفظي بالقرآن مخلوق وبدعه وقال إنه جهمي خوفاً من التطرق إلى أن يقول القرآن بلفظي مخلوق لا أنه حكم بكفره فليحرر.

اللَّه ﷺ وهو الذي نتلوه نحن مقروء بألسنتنا وفيما بين الدفتين وما في صدورنا مسموعاً ومكتوباً ومحفوظاً ومقروءاً وكل حرف منه كالباء والتاء كله كلام اللَّه غير مخلوق ومن قال مخلوق فهو كافر عليه لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين. والكلام على هذه الأمور مبسوط في غير هذا الموضع وذكر ما يتعلق بهذا الباب من سائر الصفات كالعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام في تعدد الصفة واتحادها وقدمها وحدوثها أو قدم النوع دون الأعيان أو إثبات صفة كلية عمومية متناولة الأعيان مع تحدد كل معين من الأعيان أو غير ذلك مما قيل في هذا الباب فإن هذه مواضع مشكلة وهي من مجارات العقول ولهذا اضطرب فيها طوائف من أذكياء الناس ونظارهم واللَّه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، تمت الرسالة والحمد للَّه.

وقد وجد بخط ناسخها تاريخها هكذا: وقد تمت بحمد اللَّه وعونه وحسن توفيقه في جمادى الآخرة الذي هو من شهور سنة ١١٦١ من الهجرة على صاحبها الصلاة والسلام.